وانشأ فرعاً لمحلّه التجاري في بيروت سلّمهُ الى اخيهِ خليل . وقد تكلّلت اعمالهُ بالفوز والنجاح حتى سنة ١٨٥٧ التي حدثت فيها مسألة سقوط الحرير الهائلة فنزلت بهِ الى الحضيض وكان وقتئذٍ في انكلترة . فعاد للحال بعائلتهِ الى باريس واخذ يسعى ويجتهد لتعويض ما ذهبت بهِ الاقدار (ستأتي البقية)

حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

١٧

كانت البترون في غابر الأيام مدينة عامرة بالسكان قائمةً حول جون صغير ترسو فيهِ السفن . وكانت تُشبه مدن القرون المتوسّطة بازقّتها الضيّقة واسواقها المسقوفة وازدحام المنازل حول القلعة وهي دار المقدَّم . وقد اقامت على طول الساحل عدداً من أبراج الحافظة وشُيّدت في السهل المجاور لها جملة قلاع حصينة حتى صارت مفتاحاً من مفاتيح لبنان الشمالي

ففي ذات يوم من شهر ايلول بينما كانت الشمس ترسل اشعّةً حاميةً على قصر المقدم زَين شُرفتهُ في احدى القرف المطلّة على البحر امرأتان متشاغلتان بالغزل وهما صامتتان

وكان بعد قليل أنَّ الصغيرة توقّفت عن الغزل وقطعت خيط الصمت وخاطبت رفيقتها قائلةً : ألاحظتِ يا مريم مولاتنا راحيل ؟

— ما معنى هذا السؤال ؟ فانا نظيرتكِ أراها كل يوم وانت تطلعين مثلي حسن خصالها ورقتها بجميع المتقيدين بخدمتها

— لم تفهمي يامريم مغزى كلامي . ألم تلحظي كيف انَّ أمائر الغمّ والنكد قد لاحت من بضعة ايام على وجهها

— ولماذا تغتمّ وهي صبيّة جميلة تملك ثروة واسعة وقد اظهرت من الحلم والرفق وسائر الخلال ما جعلها دانيةً من قلوب الكل في هذه المدينة التي اجمع اهلها على

احترامها ومحبتها. وفوق هذا كله قد رزقها الله غلاماً ذكرًا يرث عهد ابيه زين والجميع في البترون يدعون لها بان تُرزق مع سلامة نجلها اولادًا آخرين عديدين تحيا فيهم فضائل القدماء من مقدّمي البترون وخامد الباورنات من اسرة لبرياك

نعم انَّ وفـاة والدها التي عرضت في الاشهر الاولى لزواجها قد احزنت فؤادها وادخلت عليه الغمّ الشديد. غير انَّ من كانت مثلها وافرة العقـل ومتعلقة بالمبادئ المسيحيَّة لا تستسلم الى الحزن البليغ من جراء رزء قد طالما انذرتها به شيخوخة والدها وأسقامه الكثيرة. وفضلاً عن هذا كله قد اتت بشقيقتها فهي عندها دائماً تتعزَّى بهـا وتتسلى بمشاهدتها عن فقد والدها

— الله يسمع منك يا مريم. ولكني ارى انَّ مولانا المقدَّم زين قد غيَّر سلوكهُ منذ مدَّة مع عروسه لانهُ مذ وطئت حنَّة شقيقتها عتبة القصر قلَّ انعطافهُ الى زوجته وتحوَّلت محبتهُ بكليَّتها الى أختها المذكورة

— انَّ هذا الانعطاف هو طبيعي وهو من قبيل الشفقة على ابنة صبيَّة تيتَّمت في السادسة عشرة من عمرها ولم يبقَ من عاضدٍ ولا معين سواهُ فحملهُ الحنوّ على ان يأتي بها الى قصره

— سـتي هذا الميل حنوًّا او شفقةً ما شئتِ. نعم لا يبعد انهُ كان في اوَّل الامر كما قلتِ ولكنَّهُ انضاف اليه بعـد ذلك عاطفة أُخرى. وعلى كل حال فانَّ اهتمام زين باسر اليتيمة لم يكن يجب ان يُنسيهُ واجباته نحو قرينته. وبناء عليه فانا اكرّر عليـك القول انهُ منذ دخول حنَّة على القصر قد جرى فيه تغيير مهم

— أرى انك يا فريدة تفتحين عينيك للنظر الى ما لا يعنيك وتكثرين من الكلام الهراء الذي لا يليق بصبيَّة في سنِّك لاسيما بمن هي خادمة ظليلكِ. ألا تعلمين انهُ يجب علينا ان نغمض اعيننا على كل شيء بل ان نكون عميانًا لا نرى وصمًّا لا نسمع وبكمًا لا نتكلَّم؟ وبعد هذا وهذا لا يصح الحكم على ظواهر الاشياء لانها خدَّاعة مضلِّة ولعلَّ ما لاحظتهِ هو ناتج عن الملالة والسأم من هنـاء العيش لانَّ طول السعادة يورث الضجر كالشقاء. ولذلك اكرّر عليك القول انَّ مولاتنا في راحة وضيم

— اتمنَّى لها من كلّ قلبي ان تكون سعيدةً منعَّمةً لانها من فُضليات النساء. ولكن لا اظن اني على غرور. أما لاحظتِ كيف انَّ زينًا يكثر من البشاشة لحنَّة والحفاوة بها

ويجلس الساعات الطويلة متأملاً في الغزالة التي تلهو بها وكيف يقول لها انها تشبه هذا الحيوان الشفيق في رقتها ودماثتها ! وكان قبلاً لا يمضي يوم دون ان يخرج مع قرينته متنزهاً على الخيل ويحب ان يشاهدها راكبة حصانها وهو يموج تحتها كأنهُ يفتخر بمن علت ظهرهُ والآن قد اجتنب ذلك كلهُ وصار يقضي أياماً بكاملها يسمع ثرثرة صبيَّة في السادسة عشرة من سنها

— صدقتِ يا فريدة ولكن ما العمل والرجال لا يثبتون على حال . ومع كل هذا فاني لا ارى في ما سردت من الامور شيئاً يوجب القلق والاضطراب

— اسمحي لي اذا ان اذكِّرك بامر آخر واسألك ان تصيخي الى قولي سمعاً : اما تعهد المقدم زين لمَّا حضرت حنَّة الى هنا بان يبحث لهذه الصبيَّة اليتيمة عن شاب مهذَّب يزوجها بهِ في اقرب فرصة . والآن كلما سألتهُ مولاتنا ان يعجل القيام بعهدهِ يجاوبها انهُ لا شيء يوجب الاسراع ومع ذلك فانَّ مولاتنا لا تظهر نفوراً منهُ بل هي مقيمة على محبتهِ وتأييد ودادها الصحيح لهُ . ومعاذ الله ان اشتبه في فضيلة شقيقتها حنة او ألقي عليها تبعة الحال التي صارت اليها مولاتنا لاني ما شاهدتها قط تتكلَّم مع صهرها زين الَّا منخفضة النظر فضلاً عن انها لا تسعى اليهِ اذا لم يطلبها ولا تجرئهُ بشيء من اقوالها او حركاتها

— انها ابنة طاهرة لا تعرف ما هو الشرّ

— صدقتِ ولكن ما هو الداعي لغياب المقدَّم زين كل هذه المدَّة الطويلة ! فقد زعم انهُ ذاهب الى بشرّاي اجابةً لدعوة المقدَّم رزق الله واكَّد انهُ يعود بعد أيام قليلة وها قد مضى عليهِ الآن شهر من الزمان دون ان يرسل خبرًا فكيف لا نحسب سلوكهُ هذا قلة اكتراث بقرينتهِ

— لعلَّ امورًا غير منتظرة استدعت بقاءهُ في بشرّاي وغمًا عن ارادتهِ . ولا يخفاكِ انَّ الاحوال في شرقي لبنان ليست على ما يرام من السكينة لان عصائب العرب والتركمان والنصيريَّة غزت في هذه الاثناء دير مار يعقوب وسلبت كل ما يخصُّهُ من الماشية وحاصرت الرهبان أياماً . ثم انَّ مقدَّم جبيل لا يزال يدعي بملكيَّة قلعتَيْ معاد وسمار جبيل مع انهما من قديم الزمان تابعتان لمقدميَّة البترون . وبناء عليهِ ترين انَّ الاسباب التي

تستدعي طول غياب مولاتا كثيرة ومن يُدرينا الآن هل يخوض غمرات القتال في المنيطرة او في البقاع . . .

— وبينما المرأتان المذكورتان في هذا الحديث وصلت مولاتهما فقطعتا الكلام وكانت طويلة القامة جميلة الحيّا زرقاء العينين يدلّ ظاهرها على ما تجمّلت به من كرم الخلال وسلامة الطويّة فكان من الصعب على مَن ينظر اليها ان لا يشعر بانجذاب قلبه الى ظرفها المقرون بما لا مزيد عليه من اللطف والايناس . واذ ذاك قالت للمرأتين اللتين في خدمتها :

— في عزمي ان ازور دير القديس جرجس في الحمراء في بلاد الحصن حتى يمن الله عليّ بواسطة شفاعته بان يعود زوجي بالسلامة من سفرته وبما ان غيبتي تطول بضعة ايام قصدت اخباركما حتى تلازم كلّ واحدة عملها . ثمّ اتبعت ذلك بكلمة الوداع التي نطقت بها مصحوبة بالابتسام اللطيف على عادتها . امّا المرأتان فاخذتا تنظران احداهما الى الاخرى متعجبتين وكلّ واحدة تقول في نفسها : اني جاوزت الحدّ المرسوم لي وما يدريني هل كانت زيارة مولاتي بمنزلة تنبيه لي على وجوب حفظ لساني . وما هو الغرض يا ترى من هذه الزيارة البعيدة ؟ وكيف عزمت مولاتنا على اقتحام اخطار هذا السفر الطويل ؟

كانت هذه الافكار تتردّد في اذهانها سرًّا وقد عزمت كل واحدة من الآن فصاعداً على ان لا تتورّط في حديث قد يمكن ان يجرّ عليها وبالًا

وكانت كنيسة القديس جرجس بالقرب من قلعة الحصن مكرّمة وقتئذٍ في سوريّة غاية الاكرام وكان قد انتشر بين الناس خبر العين الدوويّة التي اشتهرت ايضاً في ايّام الفينيقيين وذاع عندهم امر الدير الكبير الذي يخصّ الملكيّين ويُحسب من اعظم الاديار في جبل اللكام (٢ فكان الجميع في بلاد عكّار وشمالي لبنان يقصدونهُ من كل فجّ وصوب وخصوصاً في ايّام السوق الكبيرة التي كانت تقام هناك في يوم عيد الصليب وكان يجتمع عدد غفير من الزوّار من كل امّة ونحلة

وعليهِ فلم يكن احد من الناس يستغرب هذه الزيارة الّا الخادمتين المتقدم ذكرهما تعجّبتا من إقدام مولاتهما عليها

(١) ياقوت , رحلة سوريّة لدوسو (٢) سفرنامه لناصري خسرو

ولمَّا دخلت راحيل الى مخدعها خرَّت ساجدةً امام المصلوب وهتفت قائلةً: « ربِّي وإلهي اعضدني وساعدني فانك عالم بطهارة نيَّتي. قوِّني على اجتياز هذه المحنة وضع في شفاه عبدك الكلام الذي يردّ السلام الى نفسي »

ثمَّ انَّها تقدَّمت الى سرير فيه طفل رضيع لم يمضِ عليه غير سنة واحدة من العمر قبَّلت جبينهُ قائلة: « نَمْ يا حبيبي بهناء. والله اسأل ان تستر جاهلًا الاحزان التي تعذِّب قلب والدتك »

. . . . . .

وفي بدء الليل عند العشاء تقريباً خرج من البترون خيَّالان وذهبا في طريق طرابلس وكان اكبرهما قد ستر كل وجههِ بكوفيَّة كبيرة من الحرير واشتمل ببرنس عريض وركب فرساً من جياد الخيل عليها سرج من المخمل الاحمر

واماً الثاني فكان احطَّ مقاماً يجاوب بكل احترام على اسئلة رفيقهِ وكان الاثنان يوسعان الخطى قلقًا وصلا على مساواة طرابلس عند قبة الشيخ البدَّاوي غيَّرا فورًا طريقهما وتغلغلا في جبل عكَّار (ستأتي البقيَّة)

اكرم مثال في القديس يوحنَّا دي لاسال

للاب لويس شيخو اليسوعي

في ٢٤ أيَّار من السنة المنصرمة نال القديس يوحنَّا دي لاسال منشئ جمعيَّة المدارس المسيحيَّة اعظم مجد يمكن البشر ان يفوزوا بهِ في هذا العالم فان قداسة البابا لاون الثالث عشر بعد الفحص القانوني عن سموّ فضائلهِ وبيان معجزاتهِ الباهرة خوَّلهُ القام الذي هو مختصّ باولياء الله ونظم اسمهُ في سجلّ القديسين وقدَّم لهُ الاكرام الجدير بشأنهِ واقام لهُ في رومية العظمى اعيادًا بهيجة دامت ثلاثة أيَّام عُرضت فيها ذخائر ولي الله وصورهُ لتكريم المؤمنين القادمين من اربع خوافق المعمور ثمَّ تكرَّرت هذه الاعياد في كل الانحاء والاقطار حيثما حلَّ ابناء هذا القديس الجليل اعني في اكثر مدن العالم المتمدّن. وفي آخر هذا الاسبوع تحظى مدينتنا بيروت بمثل هذه الحفلات الشائقة فيسمع المؤمنون اطيب الثناء على قديس عظيم لم يكتفِ بان يخدم ربَّهُ خدمةً خصوصاً بل